إن يسألوك عن: الأمن الإسرائيلى قل: إنه القاموس السياسى كله!

أنيس منصور

التعبير

الشرق : شرق . والغرب : غرب . وهما لا يلتقيان .

عندما أعلنها رديارد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية فى أوائل هذا القرن ، لم يكن يتنبأ بما سوف يشعر به العالم يوم ٢٦ مايو القادم ، عندما تحط شفاهنا وسهز أكتافنا تعليقا على التعنت الاسرائيلى فى محادثات الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى . .

تماما كما أن بيتهوفن عندما ألف السيمفونية الخامسة التى سميت « ضربات القدر » لم يكن يتنبأ بأن هتلر سوف يذيعها عند نهاية الحرب العالمية الثانية . ليهيىء الشعب الألمانى للهزيمة والاستسلام ! . .

فما هى المشكلة التى لم تفلح جميع الأطراف فى حلها ، أو الاقتراب منها املا فى حلها ؟ .

لابد أن نعود إلى اتفاقية كامب دافيد التى وقعناها واتفقنا على تنفيذ ما جاء فيها . فقد اتفقنا على « الحكم الذاتى » للشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ومعنى ذلك أن يحكم الشعب الفلسطينى نفسه بنفسه . وأن يختار شكل الحكم والحكومة ، وأن نشترك معه الأردن بعض الوقت . حتى نضمن للشعب الفلسطينى الأمن الضرورى والحرية فى الاختيار . . أى فى القرار . وكل ذلك متفق عليه ومعروف عالميا . .

ونحن نعلم كل الصعوبات فى المفاوضات . ونعلم المستحيل والممكن . ونعلم العاجل والآجل . ونعلم الصراعات السياسية والعنصرية والاجتماعية فى إسرائيل . ونعرف المساومات العربية والاتصالات السرية بين الأردن وإسرائيل . . ونعرف من الذى يريد حلا ، ومن الذى لا يريد حلا من بين العرب . ونعرف ما قاله السيد ياسر عرفات من أن المسافة التى بينه وبين السيد مناحم بيجين أقصر بكثير من المسافة التى بينه وبين الملك حسين . .

وقد حاول الرئيس السادات أن يدفع مفاوضات الحكم الذاتى إلى الأمام . فاقترح على السيد مناحم بيجين فى أسوان والعريش ويافا . الاتفاق على مدلول الحكم الذاتى مرة واحدة . بعد ذلك يصدران « التوجيه السياسى » النهائى . ويتركان للوزراء أن ينجزوا هذا العمل . تماما كما اتفقنا على كل ما يتعلق بسيناء . حتى لم تعد سيناء مشكلة ، فكل رمالها وصخورها وجبالها تنطلق الآن نحو حدود ١٩٦٧ ، وفى نفس الوقت دون تهديد للأمن الإسرائيلى ! . .

وكان السيد مناحم بيجين عندما يسمع تعبير « التوجيه السياسى » يحمر وجهه ويحنى رأسه ولا يقول شيئا . . وهو يعنى بذلك : أنه لا يستطيع أن يتخذ قرارا بهذه الخطورة دون الرجوع إلى مجلس الوزراء . . فإذا فعل فسوف يستغرق مجلس الوزراء ساعات من المناقشات الطويلة العنيفة . . دون أن تظهر فى الصحف الإسرائيلية بقعة دم واحدة ! . .

فما الذى أصاب السيد مناحم بيجين ؟ . .

لقد كانت شخصية وعقلية بيجين سببا قويا فى إقدام الرئيس السادات على السفر إلى القدس . فالسيد بيجين شخصية قوية شعبية . وهو قادر على اتخاذ القرار . فإذا اتخذه فهو قادر على الإقناع به . وقد تأكد ذلك بمفاوضات كامب دافيد ، ومعاهدة السلام مع إسرائيل ، وفى مناقشاته فى الكنيست ومعاركه فى مجلس الوزراء . فهل هذا هو أقصى ما يستطيع ؟ . .

إن السيد مناحم بيجين قد تغير كثيرا جدا . فلو عدنا إلى ما كان يقوله وهو زعيم المعارضة لوجدنا أننا أمام شخصية أخرى مختلفة . ولا يقوى على هذا التغيير إلا رجل قوى .

ويكفى أن نذكر مثلا واحدا على صدى ذلك فى الشعب اليهودى . فالسيدة جيتولا كوهين . عضو الكنيست انضمت إلى حزب بيجين عندما أعلن رفضه لمبادرة روجرز . وقد أعجبها هذا التشدد وهذا العنف ، فى مواجهة أية محاولة لتصفية إسرائيل واختفائها فى أرضها الضيقة ! !

ولكن السيدة جيتولا كوهين خرجت من حزب بيجين عندما أعلن قبوله لمبادرة السادات . وفى الكنيست مزقت اتفاقية كامب دافيد . ومضت تعارضه ، وأنشأت لها حزبا جديدا اسمه حزب « تحيا » أى « البعث » . ومضت تشهر به فى كل مكان . بل إنها ذهبت إلى أمريكا قبل زيارة السيد بيجين الأخيرة ، وأخذت تشوه صورته وتلقى بالوحل على تاريخه كله ، وتؤكد فى الندوات التى عقدتها فى كل مكان : أن بيجين هو الرجل الذى يتراجع أمام السادات، ويتعجل نهاية الشعب اليهودى فى إسرائيل ؟ !

والذين يتابعون تاريخ السيد مناحم بيجين يؤكدون أنه لا يستطيع نفسيا ودينيا وصحيا أن يسلم الضفة الغربية – أى مملكى السامرة ويهودا إلى العرب . وأن السيد مناحم بيجين، وهو الذى لديه إحساس قوى بأنه شخصية تاريخية فذة ، يرضيه أن يحقق سلاما مع مصر . فيستحق عليه جائزة نوبل . ولكن يروعه أن يدخله التاريخ من الباب ، ثم يلقيه من النافذة إذا هو تخلى عن يهودا والسامرة . .

اما أسباب السيد بيجين فهى التاريخ والتوراة . . أو هى « الأمن » الإسرائيلى . .

وفى كل مرة تزوره شخصية أوروبية أو أمريكية ، فإن السيد بيجين يفتح نافذة مكتبه ويشير بيده إلى القرى الفلسطينية ، ويقول إن فى استطاعة أى فلسطينى أن يطلق النار على مكتبه أو على أى مواطن إسرائيلى ، أى أنه لا أمن لإسرائيل مع الوجود الفلسطينى المستقل . .

وفى أول زيارة للفريق كمال حسن على لإسرائيل ، أركبوه طائرة هليوكوبتر ، ليرى « الحدود » بين إسرائيل والضفة الغربية – لعله يرى اللا « حدود » بين الضفة وإسرائيل – أى استحالة أن تكون هناك حدود .

لم يوافق بيجين على إصدار « توجيهات سياسية » بشأن الحكم الذاتى

وعند كلمة « الأمن » يقف اليهود صفا واحدا ، على اختلاف المذاهب السياسية والدينية والعنصرية . وسبب ذلك هو « الخوف » التاريخى عند اليهود الذين لم يعرفوا الأمن فى أى بلد وفى أى عصر . .

فهم شعوب « اقتلعت » جذورها من كل أرض . ولذلك فعندما أصبحت لهم دولة فهم يريدون ان يكونوا أشجارا على أرضها ، يعمقون جذورهم وأصولهم . ولذلك كان « جنونهم » بالتاريخ – أى بالبحث عن الجذور فى إسرائيل أو فى أى بلد فى العالم . ولأنهم عاشوا فى « حوارى اليهود » فى كل بلد . فهم ما يزالون يشعرون بأن إسرائيل هى أكبر حارة لليهود . ضيقة خانقة ومحفوفة ومحاطة بالأعداء من كل مكان . ولهذا السبب : كان خوفهم من الانسحاب والعودة إلى الأرض الضيقة ، وكان استعدادهم العسكرى دائما . . وهذا الخوف جعلهم يسيئون الظن بأنفسهم وبغيرهم . وجعلهم يعتمدون دائما على « الأخ الأكبر » – الأخ الأمريكى أو الأخ الروسى ، وقبل ذلك كان الاعتماد على الأخ الأكبر البريطانى أو العثمانى أو البروسى . . فلا يمكن أن نعرف معنى « الأمن » دون أن نعود إلى معانى الخوف والطرد والاضطهاد والاقتلاع والإبادة وفرض الواقع بالقوة ، وإشاعة السلام بالحرب ! . .

ولذلك تعثرت وتساقطت مفاوضات الحكم الذاتى . لأنها تهدد « الأمن » الإسرائيلى . ولا يوجد – حتى الآن – تعريف واحد واضح للأمن عند إسرائيل . وهم لا يريدون أن يضعوا هذا التحديد . لأنهم ليسوا فى حاجة إليه . فهو يتضمن الحياة نفسها . فلو أشعل أحد أبناء الضفة الغربية نارا ، وكان للنار دخان ، وتسلل الدخان – وهذا طبيعى – إلى بيت أحد سكان المستوطنات . لأحس اليهود بأنه خطر على أمنهم . ولذلك فلابد من الاتفاق منذ الآن على نوع الوقود الذى يستخدمه العرب حتى لا يفتنوا الشعب اليهودى . . وكذلك استخدام الراديو والميكروفونات والتليفزيون والسيما . . ولو أصيب بالزكام مواطن فلسطينى ، فسوف يرتجف اليهود من أن يصاب واحد منهم بالزكام – وأنا لا أحاول أن أكون ظريفا لعلك تضحك . ولكنها حقيقة المباحثات بشأن الحكم الذاتى التى تعرضت إلى ما هو أغرب وأعجب من ذلك ! . .

وقد نضحك نحن لذلك . ولكنهم فى إسرائيل لا يضحكون . فالخوف فى الدم . وسوء الظن فى الطبع .

وليس العرب كالمصريين . فقد جرب الاسرائيليون التعامل مع كل العرب . وانتهوا إلى أن المصريين مختلفون . ولذلك لم يكن غريبا أن يقول أحد الوزراء الإسرائيليين للرئيس السادات : يا سيادة الرئيس اضمن لى أن يكون العرب واقعيين كالمصريين . وأنا أترك الضفة والقطاع غدا صباحا ! . .

إذن فكلمة « الأمن » من الممكن ان تكون عنوانا للقاموس السياسى كله . فما ألوف المعانى وألوف التحفظات . .

أذكر أننى ذهبت إلى تناول الغداء عند أسرة فلسطينية فى نابلس . وكان معى صديق إسرائيلى معروف . وجاء الطعام الكثير . وفجأة وجدت صديقى يتوقف عن الطعام . وسألنى فى فزع : هل ترى ما أرى ؟ . فقلت : ماذا ؟ . . فأشار بيده إلى خارج البيت . فقد كان هناك عشرات الأطفال الصغار يلعبون . فقال : كل هؤلاء الأطفال سوف يحاربون أطفالنا فى المستقبل . إنهم كثيرون جدا . ونحن لا نستطيع أن نجارى العرب فى تزايد السكان ! . .

❦❦❦

وإذا كانت كلمة « الأمن » قد تربعت على عرش الفكر السياسى الآن . فقد سبقتها كلمات أخرى . هذه الكلمات أسقطتها التجربة العسكرية والسياسية أيضا . فقد كانت هناك تعبيرات « الهدنة »

و « وقف إطلاق النار » و « إعادة تخطيط الحدود » أو « إعادة تحديد الخطوط » . . .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ ظهرت تعبيرات أخرى مثل : « حدود آمنة ومعترف بها » . وقد ظهر هذا التعبير فى « ورقة العمل » التى تقدمت بها كندا والدنمرك إلى مجلس الأمن فى أكتوبر سنة ١٩٦٧ . .

وقدمت أمريكا فى مذكرة أخرى ، أنه لم تكن هناك قط « خطوط آمنة ومعترف بها » لا فى حرب ١٩٤٨ ولا فى حرب ٥٦ ولا فى حرب ٦٧ أو بعدها .

وجاءت حرب أكتوبر فأطاحت بالحدود الآمنة ، عندما تلاشى خط بارليف . فلا حدود آمنة أمام الأسلحة الحديثة . لأن الأمن ليس خط بارليف أو خط ماجينو أو خط سجفريد ، أو حائط الصين العظيم ، أو حائط القداف بين مصر وليبيا .

إننا الأمن فكرة أو اتفاق على فكرة . وعندما نتفق على هذه الفكرة يكون الاتفاق هو الحدود الآمنة المعترف بها . وفى استطاعتنا أن نتساءل عن الحدود بين الولايات المتحدة وكندا ، أو بين الولايات المتحدة والمكسيك ، أو بين كل الدول الأوروبية التى تمر بها ويربطها ويباعد بينها نهر الراين ! . .

وحتى بعد انسحاب إسرائيل من أرض سيناء : ليس الأمن أن تكون الصحراء بيننا ، ولا أن تتباعد القوات ، ولا أن تكون هذه القوات محدودة العدد والسلاح والذخيرة ، ولا أن تكون هناك مناطق منزوعة السلاح ، ولا محطات إنذار مبكر . فكل ذلك يمكن أن يتجاوزه فى لحظة واحدة : صاروخ أو طائرة . ولكن الأمن هو الاتفاق بيننا على ذلك . .

وفى القاموس السياسى كلمات أخرى جعلتها أصناما وأحرقنا حولها البخور . مثل كلمة « الوفاق » بين أمريكا وروسيا . وهى كلمة فرنسية غير دقيقة . وهى فرنسية لأن العرف الدبلوماسى فرنسى . وهى مثل كل الكلمات الفرنسية مفهومة ومعروفة عند الفرنسيين فقط . ولكنها ليست واضحة عند الأمريكان أو السوفيت . وكلما أحس الأمريكان أو السوفيت بحدة الخلاف قرعوا بوقاوا : إن هذا لا يتفق مع روح الوفاق – فالها برجنيف مرة واحدة ! . .

وإن كان السوفيت يفضلون تعبيرا آخر هو « التعايش السلمى » . وهذا التعبير قد ابتدعه لينين . وقد استخدمه الأمريكان مرة واحدة فى الاتفاق الذى عقده نيكسون فى موسكو سنة ١٩٧٢ . وقد شعر السوفيت بالفخر والعظمة لأنهم أرغموا الأمريكان على استخدام تعبير لينين القديم . .

ولكن أين هذا « الوفاق » عندما حارب السوفيت فك الاشتباك الأول بين إسرائيل ومصر وسوريا . أو أزمة قبرص . أو حرب أنجولا . أو حرب الهند وباكستان . أو أثيوبيا . أو احتلال اليمن الجنوبية . أو غزو أفغانستان ؟ . .

وبعد الحرب العالمية الثانية استخدمنا تعبير « الحرب الباردة » – أى الحرب الدعائية والنفسية دون الالتجاء إلى السلاح . وقد استعارت أمريكا هذا الأسلوب . فهددت باستخدام القوة دون اللجوء إليها ٢٢٥ مرة فى ثلاثين عاما ! . .

والحرب الباردة معناها « السلام الساخن » – أى الحرب إلا قليلا أو السلام إلا قليلا .

وإذا كان المؤرخ العسكرى كلاوسفتس هو الذى قال : الحرب هى استمرار للسياسة بأساليب أخرى ، فإن السوفيت يرون أن السياسة هى استمرار للحرب بأساليب أخرى . .

فالوفاق معناه : الحرب التى هى لا حرب ، والسلم الذى هو لا سلم . .

ولذلك كان تعبير « الأمن » الإسرائيلى هو الوثن الجديد الذى أقامته إسرائيل حاجزا وحائلا وعائقا دون الاتفاق على معناه . . أى على حدوده المقبولة منا ومن العالم كله . .

وقد استمع الرئيس السادات فى الأسابيع الأخيرة إلى شخصيات يهودية عالمية تؤكد له معنى واحدا ، هو : أن السيد مناحم بيجين ليس « جاهزا » نفسيا وسياسيا وتاريخيا وصحيا لتحديد معنى الأمن تمهيدا لقيام الحكم الذاتى . .

وبعض هذه الشخصيات تذكرنا بما جاء فى كتاب السيد مناحم بيجين ، الذى عنوانه « الليالى البيضاء » فى هذا الكتاب يتحدث عن الحكم الذاتى فى داخل السجون . ويرى أن الحكم الذاتى هو أن يكون الإنسان حرا فى أن يغسل ملابسه وأن يطهو طعامه فى داخل السجن ! . .

إنها حرية السجين . أى حريته فى سجن لا يملكه على أرض لا يملكها !.

حتى هذا المعنى للحرية هو أضيق تعريف لها . .

جيولا كوهين . مرفت معاهدة كامب دافيد .

الفريق أول كمال حسن على فى طائرة ليرى انعدام الحدود بين اسرائيل والضفة الغربية

وقبل أن يحل يوم ٢٦ مايو القادم، أشاع بعض العرب انهم متجهون إلى بغداد لعقد مؤتمر « قمة » . . فهل هذا المؤتمر – إذا انعقد ؟ – رد على قمة طرابلس التى رفض المشتركون فيها بعضهم البعض . فالفلسطينيون أنكروا القرارات التى اتخذت بشأن قطع البترول والغاز ، والاعتراف بجمهورية الصحراء التى أقامتها جبهة البوليساريو ؟ . .

وأوضح ما فى هذه القمة « الوهمية » : حماسة الملك حسين . فالملك حسين يريد أن يلتقى بالممولين السعوديين والعراقيين قبل سفره إلى لقاء الرئيس كارتر . أى يريد أن يضمن فلوسه السعودية والعراقية . وبعد ذلك يبيع السعودية والعراق للرئيس كارتر . ثم يقبض ثمن مياه نهر اليرموك التى سوف يبيعها لإسرائيل . .

وقد أعلن الملك حسين أنه هو الذى رفض السفر إلى أمريكا . ونحن نعلم أن الرئيس كارتر هو الذى رفض طلب الملك حسين مرتين ! . . والملك حسين ، تطبيقا لاتفاقية كامب دافيد ، يرى أنه قد وضع الضفة الغربية فى جيبه . . وأن دوره آت لا ريب فيه . .

وقد أخطأ الرئيس السادات عندما وضع الملك حسين فى اتفاقية كامب دافيد ، وجعله طرفا فى مرحلة من مراحل الحكم الذاتى ، وعندما أشرك الأردن فى دوريات الأمن مع إسرائيل . .

ولكن الرئيس السادات ليس نادما على ذلك . وكل ما يرجوه الرئيس السادات للملك حسين هو أن تمنحه السعودية والعراق كل ما يطلبه من مال ، ليطمئن على مستقبله، وليساهم معنا فى رفع العذاب والشقاء عن الشعب الفلسطينى . .

والملك حسين ينسى أنه لن يحصل على شىء من الضفة الغربية دون موافقة الشعب الفلسطينى . وعلى ذلك فكل ما يتصور أنه فى جيبه ، ليس إلا فى جيب الفلسطينيين !

ثم إن اتفاقية كامب دافيد ، ليست إلا خطوة فى طريق طويل صعب وشديد التعقيد . ولكن رغم هذه الصعوبة ، فإننا قد أفلحنا فى إعطاء المثل الناجح لخطوات مقبلة . ثم إن السلام مع مصر ليس إلا خطوة فى طريق الحل الشامل – أى السلام بين إسرائيل والشعب الفلسطينى والسورى واللبنانى والأردنى

ولا يمكن الرجوع إلى الوراء فى شىء قد حققناه وأنجزناه . .

لقد مضى ذلك الزمن الذى كانت فيه السياسة العربية الإسرائيلية مثل كرة القدم . تسجل فيها الأهداف العسكرية ، ثم تعود إلى خط الوسط ، لتبدأ المباراة من جديد . . حربا بعد حرب ! . .

ومواقف مصر واضح معروف . . وفى عبارة واحدة : إقامة المستوطنات عمل غير مشروع ، وكذلك تغيير معالم القدس الشرقية التى هى جزء من الضفة الغربية، بقرار من الجمعية العامة فى ٤ يوليو سنة ١٩٦٧ وتوافقه أمريكا قبل رياسة كارتر . ثم إننا لسنا لسان الشعب الفلسطينى ، إنما نحن نرصف له الطريق ونكنسه ونرشه قبل أن يؤدى دوره باعتباره صاحب المصلحة الحقيقية . ومن أجله كانت الحروب ضد إسرائيل ومعاهدة السلام معها . .

وفى آخر حديث بين د . مصطفى خليل والسيد مناحم بيجين قال رئيس وزراء إسرائيل : هذا هو موقفنا . .

أى ان التعنت والتوسع المطلق فى معنى « الأمن » هو آخر ما عنده من أفكار .

وكان رد رئيس وزراء مصر : ونحن أيضا لنا موقف . .

بيجين : الوفاق بين الحرب الباردة والسلام الساخن . .

وليس اكتشافاً سياسياً جديداً أن يقال : إذا لم يكن هناك سلام شامل مع العرب ، فلا سلام لإسرائيل فى هذه المنطقة . ولابد لإسرائيل التى تحكمها أقلية غربية ، من أن تكون دولة شرقية فى الشرق الأوسط . . لابد أن تكون فى سلام مع الشرقيين فى داخلها وخارجها . . أما إذا أصر الغربيون فى داخلها على أن يكونوا غربيين وأن يفرضوا « التغريب » ، على الشرقيين ، فهم أحرار فى أن يؤمنوا بما قاله الشاعر كبلنج . . وهو ما يؤمن به السيد بيجين أيضا ! .

ولكن لابد أن تتعايش إسرائيل فى سلام وفاق . . وأن تنهى الحرب الباردة والسلام الساخن ، ليكون لها الأمن الذى تتمناه . . فلا أمن بالحديد والنار . . ولا أمن بأن يتحول الخوف الإسرائيلى الغريزى ، إلى إرهاب للعرب أو إخماد لنارهم ، وتبريد لحديدهم ، قبل أن ينتهى الاحتلال العسكرى للأرض العربية . .

إن السلام مع مصر إنجاز عظيم . . ولكنه ليس السلام « الشامل » الذى طالبنا به منذ بيان الرئيس السادات فى الكنيست . .

وفى الأسبوع الماضى قد أشرت إلى احتمال « انسحاب » مصر من مفاوضات الحكم الذاتى فى هرتسليا . . ولم تنسحب مصر ، لأن اجتماعا واحدا لم ينعقد بين الأطراف الثلاثة . إنما كانت « لقاءات » على فنجان قهوة ، أو للتعليق على ما نشرته الصحف المصرية أو الأخبار الكاذبة التى تنشرها صحف إسرائيل لإثارة الشعب ضد المفاوضات ، أو لاستنكار ما حدث فى مدينة الخليل . .

وإذا لم تكن صورة رديارد كبلنج . ذلك الاستعمارى الذى ولد فى الهند وفاز بجائزة نوبل ورأى انه لا امل فى ان يلتقى الشرق والغرب . واضحة لكل عين . فإن نغمات السيمفونية الخامسة لبيتهوفن تدق كل اذن . ومادام العالم كله طرفا فى قضية السلام . فإن الوف الملايين يدينون إسرائيل ! . .

أنيس منصور